العرب
الجمعة 2021/09/17
السنة 44 العدد 12182

قتلاهم الخالدون وقتلانا المنسيون

فاروق يوسف
كاتب عراقي

أحيت الولايات المتحدة ذكرى الضحايا الذين سقطوا إثر اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001.

كانت الفجيعة غير مسبوقة وصادمة. فجأة صارت نيويورك ساحة حرب لم تكن مادتها الجيوش. لا القتلة ولا القتلى من حاملي السلاح ولم يكن السلاح هو الأداة التي نُفذت بها المجزرة.

صخب هائل سبقه صمت لم يكن ليشعر به إنسان لولا ما نتج عنه من عولمة ضاربة في عنفها لمفهوم الإرهاب.

عدوان لم يتوقع أحد أنهما سيلتقيان وجها لوجه والأفظع من ذلك أنهما التقيا في نقطة تقع خارج المتاح من الجغرافيا فلم تكن نيويورك في متناول أحد.

أسماء ضحايا هجمات سبتمبر كُتبت على نصب تذكاري يحتل مكان المبنى الذي تمت إزالته كان من المفترض أن تلتحق بها أسماء مليون إنسان قُتلوا في أفغانستان والعراق هم أيضا ضحايا الحادي عشر من سبتمبر

نيويورك هي رمز لأشياء كثيرة ليس من بينها السلام، بالرغم من أن مبنى الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أسست من أجل الحفاظ على السلام العالمي يقع على أراضيها.

نيويورك هي القوة وهي المال وهي الكارتلات العالمية لا يتعلم المرء منها إلا مشاعر فاسدة في التعالي والغرور والرغبة في فرض النفوذ والهيمنة.

يوم ضُربت مدينة ناطحات السحاب ضُربت الرأسمالية في عقر دارها. ذلك ما شكل نقطة فارقة في التاريخ المعاصر.

وافق العالم كله على ذلك الفرز ما بين التاريخ البشري قبل الحادي عشر من سبتمبر والتاريخ البشري بعده. وهو فرز يلغي كل مصائب الشعوب الأخرى وكوارثها وفجائعها ونكباتها التي وقعت على أراض بعيدة عن مركز القوة والمال وشركات النفط العملاقة.

يوم ضُربت نيويورك جُن جنون الساسة الأميركان. هل كان ذلك الجنون مخططا له أم أن الأمة كانت تواجه خطرا فعليا يتطلب القيام بخطوات استباقية تبين في ما بعد أنها كانت ملغومة بقدر لا يُستهان به من الرغبة في الانتقام؟

كان أسامة بن لادن جاهزا للإعلان عن مسؤولية تنظيم القاعدة الذي يتزعمه عما سماه بغزوتي نيويورك وواشنطن. وفي المقابل فقد كانت خارطتا أفغانستان والعراق جاهزتين لكي تُفرشا على الطاولة بالرغم من أن أفغانيا واحدا أو عراقيا واحدا لم يرد اسمه في كشوفات المسافرين على الطائرتين اللتين استعملتا في الهجومين الانتحاريين.

سيظل السؤال يطل مثل لغز "أكان مقدرا لأفغانستان والعراق أن يدفعا ثمن ما فعله الآخرون من غير أن يجرؤ أحد في العالم على الدفاع عنهما خشية أن يُتهم بالإرهاب؟".

يومها صار الإرهاب أشبه بالمقبلات التي تُقدم مع الوجبات اليومية الثلاث ورُفع شعار "مَن لم يكن معنا فهو مع الإرهاب أو هو إرهابي". ابتزت الإدارة الأميركية العالم بضحايا هم بشر عاديون ينتمون إلى أكثر الطبقات بؤسا ولم يكن مصيرهم يهم أي فرد من أفراد الطبقة السياسية لولا أنهم تحولوا إلى نجوم في العلم الأميركي الذي حملته طلائع الغزاة التي بدأت بأفغانستان وانتهت بالعراق.

أسماء ضحايا الهجوم الإرهابي كُتبت على نصب تذكاري يحتل مكان المبنى الذي تمت إزالته وكان من المفترض أن تلتحق بها أسماء مليون إنسان قُتلوا في أفغانستان والعراق هم أيضا ضحايا الحادي عشر من سبتمبر. سيكون علينا هنا أن نفترض أنهم لم يُقتلوا إلا بسبب ما جرى في نيويورك.

وذلك افتراض قد لا يكون صحيحا.

لو كان ذلك الافتراض صحيحا لحرصت الولايات المتحدة على أن تكون حذرة في اصطياد أعدائها لا أن تقتل كل من يقع في مرمى نيرانها.

كان قرار النار مفتوحا ولم يكن هناك أي استثناء. اقتلوا قدر ما تستطيعون لتشبعوا رغبة الأمة في الثأر والانتقام.

وإذا ما كان ضحايا نيويورك قد ماتوا صامتين وعثروا بعد موتهم على الفم الذي يتحدث بأصواتهم إلى العالم من غير أن يتوخى الصدق والبحث عن الحقيقة، فإن ضحايا أفغانستان والعراق وقد فاق عددهم المليون قتيل لم يجدوا حتى اللحظة مَن يدافع عن حقهم الذي فقدوه في الحياة.

لم يقل أحد إن الولايات المتحدة قتلت بالخطأ مليون إنسان في أفغانستان والعراق. كان ذلك المليون ثمن نزهتها الشريرة في بلدين ليسا على صلة بما حدث لها. ومن المؤكد أنها مارست كل فنون القتل لا من أجل أن ترتاح أرواح ضحايا نيويورك بل من أجل أن تُطلق للتسويق صورتها الجديدة في عالم ستضمه إلى ممتلكاتها المستقبلية.

هناك مَن يتحدث عن فشل انتهت إليه المغامرتان. في الحقيقة فإن الولايات المتحدة حققت ما تريد. أعلنت أنها القوة التي في إمكانها أن تقتل أكبر عدد من البشر من غير أن يقوى على مساءلتها أحد.

ذلك هو الكاوبوي الأميركي الذي يخلد قتلاه ويدفع بقتلى الآخرين إلى النسيان.

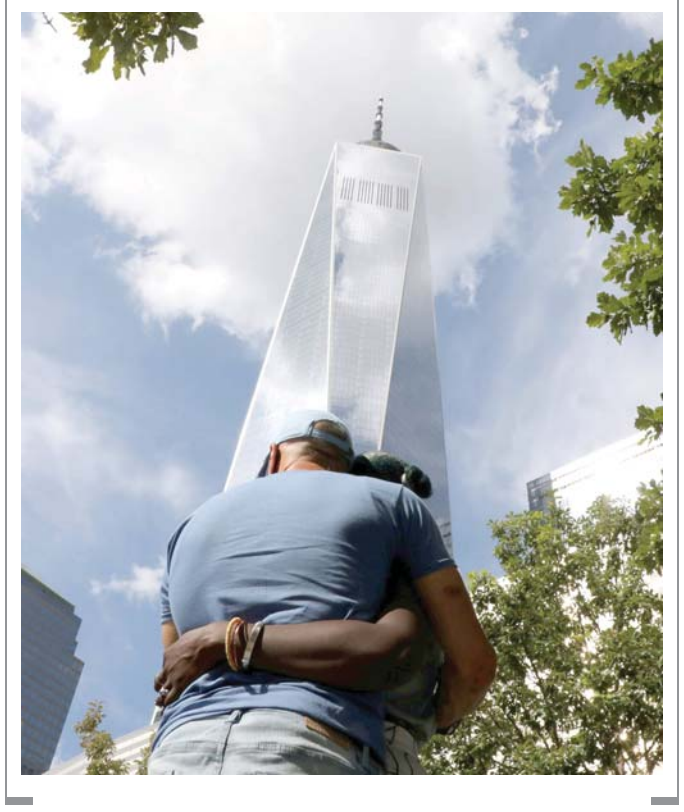

قطر والاستثمار الحرام في الغرض الحلال

علي الصراف
كاتب عراقي

انظر في الدور الإيجابي الفريد الذي تلعبه قطر في إدارة شؤون العلاقات الدولية مع حركة طالبان، وسترى أن استثماراتها في الحركات الجهادية، ومنها طالبان، لم تكن من دون غرض نبيل.

فلماذا سوء الفهم؟

ما قصدت قطر أن تفعله هو نفسه ما كان يقصده روبن هود. فهذا المتمرد كان يسرق من الأغنياء لكي يعطي للفقراء. سوى أن قطر فعلت الشيء نفسه، للغرض النبيل نفسه، ولكن بالمقلوب، بأن كانت تدعم الجهاديين الفقراء من أجل أن تعطي الأغنياء الطمأنينة وراحة البال.

والحال، فإننا من دون نافذة تطل على عالم الجهاديين العجيب، ما كنا لنعرف شيئا عنهم. ومن دون أبواب نطرقها عليهم، ما كنا لنجد سبيلا لترشيد ما قد يفعلون. وفي الحقيقة فإن الكثير مما تقول طالبان إنها تغيرت فيه، كان بسبب التأثير القطري.

الدعم المخلص فتح لها القلوب وسمح للعقول أن تعقل أن العيش في عالم اليوم ليس مجرد معركة نخوضها ضد الأميركيين وحلفائهم، بقدر ما هي معركة إثبات وجود، ومعركة قدرة على التعايش مع عالم، حتى وإن بدا غير سوي، فإنه يظل عالما نحتاج إقامة علاقة "حسن جوار" معه.

ولقد ثبت أن هذا الاستثمار كان ناجحا. وهو من نتائج يقين براغماتي يقول إنك تستطيع أن تجعل الضار مفيدا، والإرهاب عاقلا، وأن تكون لك نافذة تطل عليه، ومدخل للتشاور والتحاور معه، وسبيل لعقلنة المجانين واتقاء شرهم.

ولئن أخذ بعضنا الحميّة في حسابات أخرى، تقول إن المسار كله كان مسارا للتخريب وسفك الدماء والدفع إلى انهيار دول ومجتمعات، فإن البركة بالخواتيم. ذلك أن تحوّل الإسلام الجهادي إلى قوة تفرض نفسها أمام "الركود السياسي" و"الفشل الديمقراطي"، كان سيؤدي إلى كل ما رأيناه من خراب في جميع الأحوال. وذلك في نوع من الأمر الواقع الذي لا مفر منه، سوى أن الامتناع عن فتح النوافذ وطَرق الأبواب يزيد الضرر ضررا، ويحرم العالم من القدرة على فهم الجهاديين، كما يحرم الجهاديين من فهم العالم.

وكان من حسن حظ العالم الغافل أن الدعم القطري وفر الجسور، لتبادل المعرفة، وتبادل السفراء.

من دون الدور القطري الراهن في أفغانستان، كيف كانت عاقبة الأمور ستكون؟ وهل تحسب أن الانسحاب الغربي تم بالحد الأدنى من الخسائر، من دون ذلك الدور الذي أقنع طالبان، وكل مَنْ يدور حولها، بأن تحرس الخروج وتوفر له التسهيلات؟ أفهل رأيت أن مطار كابول محاطٌ بجبال وعرة، وكان يمكن للقذائف والصواريخ المحمولة على الكتف أن تحوله إلى جحيم؟

فلماذا سوء الفهم؟

والمهمة مستمرة، من أجل إقناع طالبان، ومن خلفها "القاعدة"، بأن إقامة علاقات معتدلة مع العالم هي السبيل الوحيد لكي تتحول "الإمارة الإسلامية" في أفغانستان إلى نموذج ناجح، يطل بإشعاعاته المباركة على باكستان وطاجكستان وتركيا وغيرها. باستثناء إيران، فهذه لها إشعاعات مباركة خاصة بها، يتصدرها في العراق وسوريا ولبنان واليمن جهاديون من نوع آخر. ولقطر معهم جسور تم بناؤها بالمال وعرق الجبين.

الإسلام السياسي، صحيح أنه أداة من أدوات الدمار الشامل، إلا أنه حقيقة قائمة. وبالتالي فإن "التعاطي" معه يظل مفيدا، لأنه سيجعل الطريق سالكا من اتجاهين: تفهمني وأفهمك. تتعايش معي فأتعايش معك. تعطيني ضمانات، فأعطيك نقودا، ثم تعطيني دورا، فأعطيك المزيد، وهكذا.

الإسلام السياسي لم يعتدل إلا عن هذا الطريق. وللمرء أن يتصور كيف كان يمكن للحال أن يكون، لو أن حركة النهضة في تونس اختارت أن تدافع عن سلطتها بقوة السلاح. وتخيل لو أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر واصلت حربها في سيناء، وأبقت رأس مصر مقلوبا حتى لتعجز عن الحصول على لقمة العيش. وهل تحسبن أن حكومة عبدالله حمدوك في السودان ورئاسة عبدالفتاح البرهان لمجلس السيادة الانتقالي تسيران في طريق إعادة البناء، من دون رحمة جاءت من اعتدال "الجماعة" وقبولها الانحناء العاقل للعاصفة؟

وهذه الجماعات تحاول الآن أن تنتقد مساراتها، من أجل أن تتحول إلى أطراف سياسية أكثر معقولية، فتتقبل لعبة المشاركة السياسية وتثبت، بعد اعتدال طالبان ونجاح إمارتها الإسلامية، أنها تستطيع أن تركب موجة اعتدال أعلى فتصبح شيئا يرقى إلى مستوى الحزب المسيحي الديمقراطي في ألمانيا. فتكون جماعات الإخوان أحزابا تحمل أسماء جديدة بدلا من الأسماء المخادعة السابقة كـ"العدالة والتنمية"، حيث لا عدالة ولا تنمية، أو كـ"العدالة والحرية" حيث تنازعتا حتى سفكت إحداهما دماء الأخرى.

بعض المستغلين ذهب إلى الاعتقاد بأن كل ما تحتاجه للحصول على المال هو أن تكون إرهابيا ولكن الاستغلال لا يدوم فأسفر عن تفريخ تنظيمات جديدة كما حصل في سوريا

المستقبل القريب قد يحمل أسماء جديدة من قبيل "الحزب الإسلامي الديمقراطي"، أو "حركة المعتدلين الديمقراطيين"، أو جماعة روبن هود الوطنية الديمقراطية.

بعض المستغلين ذهب إلى الاعتقاد بأن كل ما تحتاجه للحصول على المال هو أن تكون إرهابيا. ولكن الاستغلال لا يدوم، فأسفر عن تفريخ تنظيمات جديدة، كما حصل في سوريا، حيث لم يعد بالإمكان إحصاء الفصائل التي انشقت على بعضها البعض. كما لم يعد بالإمكان معرفة مَنْ أخذ ماذا، مقابل ما احتجزه من رهائن غربيين أطلقت قطر سراحهم. ولكن حتى هؤلاء صاروا معتدلين.

تحتاج المقاصد النبيلة وقتا لكي تُفهم. وها قد حان الوقت لكي يرى الأعمى قبل البصير كيف ساعدت قطر في إنقاذ العالم من مأساة كبرى.

وهي ستظل تؤدي الخدمة كسفير للعالم بأسره في إمارة أفغانستان الإسلامية. من ناحية لكي تكون إمارة قادرة على النهوض بأعباء إدارة المجتمع باستيعاب تناقضاته وتعدديته، ومن ناحية أخرى بضمان الوفاء بعلاقات التعايش مع دول العالم. والمال موجود لخدمة كل غرض معتدل، ولعقلنة كل إرهابي حصيف.

ويعتمد على نجاح الإمارة الإسلامية الكثير. فهي نموذجٌ ملهم، يمكن أن يدفع كل الحركات الجهادية، بما فيها تنظيم داعش إلى أن تأخذ بطريق الاعتدال.

هذه الحركات تستطيع أن تواصل المعركة داخل مجتمعاتها. لا توجد مشكلة في ذلك. فالجهاد يمكن أن يستمر ويزداد بطشا. ولكن حالما يتحقق الانتصار، كما حققته طالبان، فإنها تنقلب على وجهها الآخر، كما تنقلب قطعة النقد، من وجه إلى وجه، هكذا في غمضة عين، ومن دون شروح، ولا حاجة إلى تفسير أو تأويل.

ومن بعض ما يهم في الأمر، هو حماية التجربة الجهادية من حملات الشيطنة التي ظلت تتعرض لها منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 إلى الأول من سبتمبر 2021، وحماية العالم. ولا بد للمُنصف أن يُنصف. فهذا جهد نبيل. إنه استثمار في الحرام، من أجل الحلال. وما كانت ألغازه لتُفهم إلا بعد حين.